الأدب والدولة

بقلم ميخائيل نعيمه

ليس من ينكر انّ للأدب أبعد الأثر في تكوين الامم ، وتوجيه مجاري حياتها. إلا انه من الصعب، بل من المستحيل ، تحديد ذلك الاثر وتقدير قيمته ومداه . ذلك لانه لا ينحصر في ناحية دون اخرى من نواحي الحياة البشرية . فهو في العقل وفي القلب ، في الروح والجسد ، في الحقل والمعمل ، في السجن والمدرسة ، في دواوين الحكم وفي المعابد ، في المناجم والمصانع ، في المساكن والمتاجر ، في المتاحف والمكاتب ، في ساحات الوغى ودور الملاهي ، وفي كل ما يتصل بالانسان من قريب او من بعيد .

هذا كلام لا مجاز فيه ولا مغالاة ، بل هو دون الحقيقة بكثير ، واضيق من ان يتسع لكل وجوهها . وها هم الكتاب والنقاد والمؤرخون ما ينفكون يبحثون تأثير هذا الكاتب او ذاك في حياة تلك الامة او هاتيك بل في حياة الانسانية بأسرها، وبالاخص في الانقلابات الكبرى التي شهدتها البشرية على مر العصور ، وأقربها الينا الثورة الفرنسية والاميركية والروسية. فهل من يجهل ان موليير وفولتير وروسو وهيغو وبلزاك كانوا ملوكاً بغير عروش وكانوا أبعد أثراً في تاريخ بلادهم وتاريخ العالم من الجالسين على العروش في أيامهم ؟ وان بوشكين وتولستوي وتورغينيف ودوستويفسكي وغوركي كانوا أباطرة غير متوجين واعظم سلطاناً من أباطرة الروس الذين عاصروهم؟ وان غيتي وشيلّر ونيتشه وماركس كانت — وما تزال — لهم مملكة اين منها مملكة فردريك الكبير وغليوم الثاني ؟

ونحن لو جئنا نحلل حياتنا في هذا الشرق العربي لما استطعنا الوصول الى جذورها السحيقة ولما عرفنا الى ايّ حدّ نحن مدينون اليوم بتفكيرنا الروحي والاجتماعي والسياسي، وبنظمنا وتقاليدنا ، لادب الجاهلية ولآداب العصور التي تلت الجاهلية ، ثم لآداب باقي الامم من شرقية وغربية ، ثم للرسالات الدينية التي قامت بين ظهرانينا وانتشرت على ألسنة أسلافنا وأقلامهم وانطلقت الى العالم من تحت سمواتنا . وها هما دولة المتنبي ودولة ابي العلاء ما تبرحان قائمتين في قلوبنا وأفكارنا وقد مرّ على تأسيسها اكثر من ألف عام في حين ان دولة بني حمدان ودولة بني بويه أصبحتا من زمان خبراً من الاخبار ؟

في هذه الآونة التي يحتدم فيها النقاش ، عندنا، حول حقوق الادباء على الدولة ، وواجبات الدولة تجاه هذه الفئة القائدة من الشعب ، رأت « الآداب » ان تستطلع راي أديبنا الكبير ، ميخائيل نعيمة، في مشكلة الساعة هذه ، فكتب لها هذا المقال .

وقصارى القول إن للأدب دولة لاتدول وسلطاناً لايحول. فما هي العلائق التي يحسن ان تقوم بينه وبين الدولة بمعناها المألوف من حيث هي هيئة منظمة وجدت لتأمين الناس على أرواحهم وأجسادهم ، وتسهيل سبل العيش لهم، والسير بهم من الضنك الى الفرج ، ومن القلة الى البحبوحة ، ومن المرض الى العافية، ومن الجهل الى المعرفة، ومن الضعف الى القوّة ، ومن التفسّخ الى الاتحاد ، ومن الفوضى الى الاستقرار ؟

تلك هي الغاية المفروضة للدولة . ولولاها لما كان من مسوّغ لوجودها . ولهذه الغاية يتحمل الناس في سبيل الدولة مايتحملون من حدّ لحرياتهم ؛ فيلقون بمقاليدهم اليها تتصرف بها حسبما تمليه حكمتها . فتشرف على مقدراتهم ، وتنظم مرافق حياتهم ، وتفرض عليهم المكوس والضرائب ، وتسنّ لهم القوانين ،وتقيم لهم شتى الدوائر والمحاكم . فوزارة للزراعة ، ووزارة للصحة ، ووزارة للتجارة والصناعة ، ووزارة للتربية ، ووزارة للحربية، الى ما هنالك من وزارات تتعدد بتعدد مرافق الحياة وأهميتها. ولكنني ما سمعت ولا قرأت حتى اليوم عن دولة أقامت وزارة للادب . ولا عبرة بوزارات خلقتها اكثر الدول باسم الفنون الجميلة او باسم الدعاية والنشر . فوزارة الفنون الجميلة تحصر جلّ همّها في المتاحف والآثار ، ووزارة الدعاية والنشر في بث الدعاية للدولة وسياستها ونشر ما يوافق غاياتها ، ومحاربة ما يخالفها . أما الادب الصحيح الذي هو اعظم وأنجع دعاية للدولة التي تُنبته فحبله على غاربه ، يشقى ويسعد ، ويكبو وينهض ، ويتقلص ويمتد، ويجوع ويشبع في معزل عن الدولة، كأنه ليس منها بحلّ او بحمر، او كأنه لقيط لا ينتسب الى حيّ من الأحياء او ميت من الأموات . ولكنه ما ان ينجب اديباً

متفوّقاً يتألق نوره ، ويسطو على الأفكار قلمه ، ويغزو آلاف آلاف القلوب بيانه ، ثم يبتلعه اللحد ، حتى تستيقظ الدولة من سباتها ويروح رجالها يتنافسون في تمجيد ذلك الأديب ، وتروح مدنها تتسابق في إقامة الأنصاب له و « تشريفه » بتسمية شارع من شوارعها او ساحة من ساحاتها باسمه .

أيكون ذلك من سوء طالع الادب ؟ — لا وربّ الادب ! بل هو من حسن طالع الادب ان يحيا بحيوية فيه لا في الدولة ، وان يشقّ طريقه بساعديه لا بسيف ملك او بسلطان برلمان ، وان يمشي في طريقه مرفوع الرأس عزيز الجبين من غير ان يتوكأ على عصاً غير عصاه ، ويستنير بنور غير نوره ، ويستلهم إرادة غير إرادته .

هنالك أدباء ينعون على الدولة إهمالها للادب . فهم يريدون منها ان « تشجّعهم » بابتياع قسم من نتاج اقلامهم ، او باسناد وظيفة اليهم ، او بتسخير أبواق الدولة للاشادة بمواهبهم . لقد ساء ما يبتغون . فهم من حيث لا يعلمون يبتغون لاقلامهم الرقّ . ولافكارهم الانفلاق ولمواهبهم الموت . فالدولة ماعَدَت كونها هيئة مؤلفة من رجال ذوي أغراض وذوي مطامع . حتى ولو تنزه كل رجال الدولة عن الاغراض والمطامع الشخصية بقيت للدولة أغراضها ومطامعها . ومن حقّها اذا ما انفقت من خزينتها ان تطلب ممن تنفق عليهم ان يخدموا اغراضها ومطامعها . وإذ ذاك فحرية الاديب في ادبه وَهْم من الاوهام وخرافة من الخرافات . والاديب الذي يبيع إلهامه بمال ، وإن يكن من خزينة دولته ، رحمة الله عليه من الآن والى الابد .

انه لمن الخير للادب ان يبقى طليقاً من شباك الدولة وبعيداً عن الاهواء التي تعصف بسياستها وبرجالها من حين الى حين . فلا يكون جزءاً من جهاز الحكم ، او مطية مقودها في يد الحكام . ولا ينسى انه كتلة حية في جسد الامة الحي ! وان الامة ، مهما يكن شأنها بين باقي الامم ، عضو من الاعضاء الكثيرة التي يتكوّن منها ويقوم بها الجسد الاكبر — واعني الانسانية . فالحكام يأتون سراعاً ويمضون سراعاً ، والدول تولد وتشب وتشيب وتموت . اما الشعوب فتبقى . واما الأنسانية فلا تموت . فالأدب الذي يقيم لنفسه وزناً ويعرف لذاته قيمة يجب ان يصرف همّه الى الانسان قبل حكامه ، والى الامة قبل الدولة . فلا يعير الحكام والدولة انتباهاً الاّ على قدر ما ينحرفون بالأنسان عن طريقه القويم او لا ينحرفون .

وانه لمن الخير للدولة ان تعيش والادب في سلام تام . واعني ان تطلق له الحرية فلا تحاول تقييده في ما يفكّر ويشعر وكيف يليق به ان يُفصح عن افكاره ومشاعره حتى ولو كان في تفكيره وشعوره وبيانه ما ينافي مصلحة الدولة كما يفهمها رجال الحكم ؛ وحتى لو كان يدعو الى تقويض اركان الدولة . فالدولة الواثقة من اهدافها ومن نياتها ومن الوسائل التي تلجأ اليها لبلوغ تلك الاهداف وتحقيق تلك النيات لا خوف عليها من الأدب . بل من الأرجح ان تجد لها في الادب اقوى معين واخلص نصير . والدولة التي اهدافها مزيفة ، ونياتها فاسدة ، ووسائلها مشبوهة يستحيل بقاؤها زماناً طويلاً وان هي سدّت على الأدب جميع المسالك ، فحطمت الاقلام ، وعقلت الالسن ، وكمّت الافواه . فالسوس الذي ينخر لبابها سيقضي عليها عاجلاً ام آجلاً وفي الأغلب عاجلاً .

إلاّ انه ليس يكفي الدولة ان تعيش والأدب في سلام . بل هنالك واجبات معنوية ومادية تترتب على الدولة نحو الأدب مثلما تترتب عليها واجبات معنوية ومادية نحو الامة . فما دام للادب تأثيره البالغ في حياة الامة ودامت الغاية من وجود الدولة تنمية الامة وتوفير اسباب الرزق والراحة والسعادة لها ، فبأيّ منطق تهتمّ الدولة بتحسين المواصلات ، وتعميم العلم ، وتقوية الصناعات ، وتكثير المنتجات ، وتوفير الريّ والبذار للمزارعين والمحروقات للسواقين ، والحبر والورق للصحفيين ، ولا تهتم بالادب وهو الطريق الاقوم والأبقى بين ارواح الناس وقلوبهم وافكارهم ، والمدرسة الاوسع والأعمّ لصغار الامة وكبارها ، والبذار الذي يستغله الناس في كل ساعة ، وكل شهر وكل عام ؟ بأي منطق تعمل الدولة على زيادة ثروة الأمة المادية بزيادة ما تنتجه وتصدره من الصوف والنعل والبصل ولا تعمل على زيادة ثروتها المعنوية والمادّية معاً بزيادة ما تنتجه وتصدره اقلام كتابها ؟

ولا يخطرنّ ببال انني ادعو الدولة الى الاتجار بالادب . معاذ الله . ولكنني ادعو الدولة الى تفهم حقيقة بسيطة جداً . وهي ان الادب روح وجسد . اما الروح ففكر وشعور وذوق وفنّ واشواق واحلام . واما الجسد فغلاف وورق وحبر وطباعة وتجليد . وهذه كلها امور مادية ليس في قدرة الكاتب خلقها حين يشاء او ابتياعها بالثمن الذي يشاء . في حين ان الدولة تملك القدرة على خلقها او في الأقل على ابتياعها من اسواقها مثلما تملك القدرة على ابتياع الزفت لتعبيد الطرق ، والسماد

لامداد الأرض بالغذاء الذي تحتاجه كي لا يحلّ بها العقم والبوار . فعلامَ لا تهتم الدولة بتوفير المواد الضرورية لكيان الادب وتهتم بتوفير الزفت للطرق والسماد للارض ؟ اتكون قرائح الامة ومواهبها الروحية والفنية اقل قيمة في نظر الدولة من الزفت واحطّ قدراً من السماد ؟ واذن فايّ مبرر لوجود الامة ووجود الدولة التي تسوسها ؟

اقول ذلك وتجارب السنين الاخيرة ما تزال ماثلة لذهني ولعينيّ ايام راحت الحرب تنهب خيرات الارض وتنكب سكان المعمورة بالقلة من كل شيء الاّ البغض والحقد ، والا وسائل القتل والدمار ، مما حمل جميع الدول على تقنين المواد الاولية التي لا تستقيم حياة الناس في هذه الايام بدونها . ومنها الورق الذي هو المادة الاولى في حياة اي كتاب وبالتالي في حياة الأدب .

لقد حرصت الدول غنيّها وفقيرها ، كبيرها وصغيرها ، ان توفّر الورق ابان الحرب لكل ما من شأنه ان يساعد مجهودها الحربي . ونحن في هذا الشرق ما نسينا النشرات الانيقة التي كانت توزعها علينا بعض الدول بالمجان وتلك التي كست بها جدران عواصمنا وجوانب طرقاتنا . اما دويلاتنا الشرقية فكانت تتناول نصيبها الضئيل من الورق من حليفاتها الكبار فتوزعه بالتقتير على الصحافة . ذلك لأن الصحافة ، على اهمية شأنها ، كانت في نظر حليفاتنا الكبار بابا من ابواب الدعاية لهن. وهي في نظر حكوماتنا بوق لا بد منه لتسيير امور الدولة . فهي جديرة باهتمام الدولة وان سفلت اغراض الكثير منها واقحلت قرائحه فكان بالموت اولى منه بالحياة .

اما الأدب فكان عليه ان ينظر الى كل ذلك متلمظاً بريقه ، وان يقبع طوال سني الحرب ويُقيدها في رؤوس الادباء وقلوبهم من غير ان يتاح له الخروج الى عالم الله الفسيح . إلاّ ادب الثروة والبهجرة والاناقة ، وما اندره بين الادباء ! فما من دولة من دول الشرق تعطفت على الأدب بحصة ، ولو ضئيلة ، من الورق او حاولت ان تحميه من جور « السوق السوداء » التي لا طاقة له على اقتحامها . فكأنه غريب عن الامة وحياتها ، او كأنه نبتة طفيلية في جسدها .

واني لأسأل نفسي واسألكم : ما قيمة امةٍ بغير ادبائها ؟ وما قيمة دولة لا تعرف لأدب الامة قيمة فتوفر له المواد الضرورية لوجوده ؟

ميخائيل نعيمه

الطِّيبُ المُسْتَبِدّ

انا يا هواي ، أموت وجداً
وَلو أنني أبديت صدا
فلأنت طيب في دمي
يجري ويعبق مستبدا
وأراك خلف ملامح الأشياء
توعد عنك وعدا
فأرق للجلمود من
شغفٍ بما أخفى وأبدى
وتشيع عيني في الغصون
العاقدات عليك عقدا
ويمر بي النسم البليل
فألمس الكف المندى
ويرقرق الينبوع صوتك
لي فما أهناه وردا
أفتبعدين وقد وجدت
فدتك روحي الوصل بعدا
وطمعت بالأدنى اليك
فنلتهي طيباً ووردا
لا تبعدي اني أموت
هوى ولو أبديت صدا

صلاح لبكي